قصة قصيرة

نصيب

سمير أحمد الشريف

لم يكن فألاً حسناً ذلك الغروب الجميل...

ردد في نفسه وزحف إلى الأمام بحركة متباطئة في محاولة للتخلص من الخدر الذي غزا مؤخرته.... مد يده يرتب بقايا الأوراق القليلة الباقية، فرحاً لهذه المصادفة التي أوشكت أن تضع حداً لعذاباته التي تمارس جنونها على ملامحه وقلبه كل يوم.

لفحة ارتياحٍ ما عتمت أن انفرشت داخل صدره وهو يحملق في بقايا أوراق اليانصيب التي بقيت، مؤكداً لنفسه أن هذه البداية الموفقة، ستضع نهاية عملية وناجحة لمكابدة ذلك الشيخ المغضن الأهاب، المرتجف الأيدي البارز العروق، صاحب الصوت الذي لونته البحة وكسته رنة أسى ممزوجة بالضآلة.

هذا الأب الذي بلغ من عمره عتيًا، ولم يكتب له فسحة ولو ليوم واحد، يرتاح فيها من لملمة شتات هذا القطيع من البنات اللواتي نكبن بأخٍ محسوب عليهن كرجل ظلماً ولا يزيدهن ووالدهن إلا إرهاقاً تتقطع له نياط القلوب.....

التفت إلى زرافات الطلاب يعودون من مدارسهم، تنّهد بعمق ولوعة وهو يصيخ السمع إلى هتاف الصبية يتوافدون على زميلين أجّلا عراكهما حتى موعد الخروج، حرقة ممزوجة بالمرارة نزلت إلى شغاف قلبه وهو يرى الصبية يتراكضون... حاول أن يحرك قدميه... خانته قواه... وتذكر حقيقته..

تلمس عكازه... نهض مستعيناً به.. تدلت رجلاه كحبل غير مشدود، سحب جسده يتفرج من بعيد... ألوان كثيرة من الملابس الزاهية والمزركشة تصطدم بها عيناه.. عمال، سائقون، سيارات من كل نوع ولون... باعة يصرخون ودنيا جديدة تتشكل في خياله الصغير.... تساءل: لماذا لم يلتفت لهذه المهنة من قبل؟ لماذا لم يفكر بمساعدة الوالد الذي هدّه التعب وأنهكته السنون؟! ثم ماذا باستطاعة ذلك الشيخ الهرم أن يفعل وورش العمل تقبل به يوماً وترفضه أسابيع؟

كان عليه أن يفتش ومن زمان طويل عن وسيلة يشارك فيها والده لملء الأشداق التي تنفتح كل يوم، خاصة وأن أخاه الكبير الذي غيبته الأيام خلف جدار سميك وقد كان يبعث ما يبلل به حلوقهم من نقود قد توقف. كلهم كذلك... ما أن يكبروا ويلوذوا بأحضان زوجاتهم حتى يتنكروا للأسرة التي ترعرعوا بين ظهرانيها وللأب الذي كدح حتى التهب رأسه شيباً....

أوه... ما لي أظلم أخي ونحن لم نعد نعرف عنه شيئاً؟؟ يجب أن أعترف أنه ما قصّر يوماً عن إرسال ما يزيد عن حاجته برغم ضآلة المبلغ.... قاتل الله الحرب...

عندما كان قريباً وفي بيروت.. كانت أمي بلا مقدمات تدلف إلى المكتب فجأة، تستفسر عن أحواله وتطمئن على أبنائه وتحمل من عنده بعض النقود...

ايه يا بيروت؟ أين أنت الآن؟ وأين أنت يا تونس ويا حمّام الشط؟ ترى لماذا أسموك كذلك؟ عدة مرات وعدتني أختي أن تدلني على مكانه فوق الخارطة لكنها تنسى... إيه... هل أنت هناك أيها الأخ الحبيب الذي لا أعرفك إلاّ بوساطة الصورة التي تزين صدر غرفتنا المثقوبة السقف؟ ولا تكف أمي كل يوم عن تقبيلها ومسح إطارها الذي تكاثرت عليه مخالفات الذباب حتى غدا كابياً؟

أين أنت أيها الأخ ولماذا لم ترسل لنا قصاصة تطمئننا فيها؟ فهل يمنعونك من الاتصال بنا والكتابة إلينا؟ لا أظن... ولم نعهدك قاسي القلب كما أنت الآن..

لو قدر لك أن تأتي وتنظر في وجه أبيك وتستقرىء ملامح اخواتك! من المؤكد أن ظروفاً قاهرة حالت دون أن ترسل لنا شيئاً...

لن ننحي باللائمة على زوجك فأنت دوماً كنت تضع لها حداً ولا تأبه لأقاويلها... ما نريده منك يا أخي أن ترسل ما يثبت لنا أنك حيّ تتنفس هواء الدنيا ونطمئن الوالدة التي تطاردها الهواجس الغريبة ليل نهار... ولنضع نهاية لنحيب الوالد الذي ذهب البكاء ببقايا ضوء عينيه مؤكداً أن قلبه لا يخطىء دبيب هواجسه التي ترعى فيه صباح مساء.... هذه الدوامة التي تعصر أيامنا مطلع كل شمس... أما آن لها أن تتوقف؟ ليل هذا المخيم أصبح خانقاً وسماؤه متلبدة بالهموم. أما شوارعه فتضغط بغبارها وصياح باعتها وكنّاسيها على شغاف القلب.. حتى المخيم لحقت به اللعنة. من يصدق أننا نسينا الفاجعة بمثل هذه السرعة؟ من يصدق أن هذه البيوت المتطاولة المزركشة كانت يوماً ليس بعيد خياماً تنفخ فيها الريح وتدق أقمشتها حبات البرد وتمزّقها سياط الثلج؟ وكانت بالأمس القريب شاهداً ماثلاً على المأساة؟! من يصدق أن بيتنا... نعم بيتنا من بين بيوت الحارة جميعاً مازال قزماً ببوابته الصفيحية الكثيرة الخروق، يعزف لحناً مأساوياً كلما داعبته الريح؟ لقد قررت أن أقفز فوق عاهتي أقف بجانب والدي اشتغل وأجمع ثمناً لبوابة لا تزعزعها الريح فأضع بذلك حداً لشكايات الجيران التي ارتفعت مدعين أن زعيق بوابتنا يزعجهم ويكدر صفو متابعتهم لمسلسل السهرة...

رغماً عن أن الفكرة لم تعجب والدي وأبكت والدتي وجعلت اخواتي ينكسن رؤوسهن خارجات ينهنهن، إلاّ أنني صممت ووضعتهم جميعاً تحت الأمر الواقع كما يقولون قلت لهم: إنني تساومت مع بائع اليانصيب على نسبة من الربح توفر لي نصف دينار كل يوم فما العيب في ذلك؟ أليس ذلك أفضل من أن أضع عاهتي وسيلة استدرّ عطف الناس؟ معاق؟ فليكن! مهنتي هذه لا تحتاج إلا لصوت لا يتوقف عن الصياح وأنا بحمد الله أمتلك حنجرة فولاذية.. ثم ها هو يومي الثالث يؤكد نجاحي وصدق توجهي... أين سرحت بأفكارك يا عبد الودود؟ أنسيت نفسك تحملق في هذا الجدار بعد أن انفض الجمع وتدخل رجل وفك العراك؟ يكفي أن قلبك يزغرد بهذا الفرح ستعطي النقود لأمك تدخّرها لك.. ستصر عليها أملاً بشراء عربة تؤسس عليها مشروعاً تجارياً صغيراً تبيع الحلوى وبعض الأشياء لأطفال المدارس... أين كانت هذه الأفكار غائبة عنك؟ فلتذهب إذاً يا عبد الودود مرتاح البال تنام قرير العين مستسلماً لدعوات أمك في غبش الفجر...

اصطفاق بقايا أوراق اليانصيب في يدك والتي تحركها الريح يدغدغ في قلبك أملاً يانعاً... فلتذهب مسرعاً وتستقبل والدك وتزف له البشرى ليعلم أنه أنجب ابناً يُعتمد عليه بعد الآن... كان الشارع خالياً إلا من طقطقات عكاز عبد الودود تأتي ممتزجة أحياناً بزعيق سيارات تعود بسرعة مجنونة...

عندما تجمهر الناس يضربون أكفهم ببعضها ويمصمصون شفاههم حزناً لم يستطع عبدالودود ـ الذي مُدِّدَ في انتظار الإسعاف ـ أن يفقه شيئاً مما يدور حوله ولم يستطع خياله تحديد ملمح محدد للصوّر الكثيرة التي تراقصت باهتة أمام ناظريه لكنه استطاع أن يلم شتات جملة تناهت إلى أذنيه مبعثرة الكلمات: انّ نوع السيارة التي دهمته كانت أمريكية وكان المختار هو الذي يقودها.

الأردن